الأمية الثقافية والعرب

Mohamed Rabie

حين تتحدث الإحصاءات العربية والدولية عن الأمية، فإنها تعني الأمية الناتجة عن عدم تعلم فن القراءة والكتابة التي تتفشى بنسب عالية في الكثير من الدول العربية والآسيوية والإفريقية. لكن إذا استعرضنا ما حدث في البلاد العربية على مدى نصف القرن الماضي فسوف نكتشف أن نسبة الأمية بين المواطنين العرب انخفضت كثيراً عما كانت عليه في السابق، وإن بقيت مرتفعة بالنسبة لمعدلاتها في الدول المتقدمة وعدة دول نامية. إن ضعف ميزانيات التربية والتعليم في غالبية الدول العربية، وارتفاع معدلات التزايد السكاني، وتدني نقطة البدء بالنسبة لغالبية البلدان العربية، تسبب في بقاء نسبة الأمية عالية نسبيا. ويقدر عدد الأميين بين العرب الذين تجاوزوا سن الدراسة 70 مليون شخص، أي نحو 20% من السكان. تحاول هذه الدراسة التعرف على أسباب انتشار الأمية التقليدية والثقافية في البلاد العربية وتحديد تبعات هذا الأمر على متطلبات التنمية والنهوض واللحاق بالعصر.

بناء على تقرير صادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في عام 2023، تبلغ نسبة الأمية في البلاد العربية نحو 20% من السكان الذين تزيد أعمارهم عن 15 سنة، ما يعني أن عدد الأميين يبلغ نحو 70 مليون شخص: 43 مليون من الإناث و 27 مليون من الذكور. أما عدد الأطفال الذين في سن الدراسة لكنهم محرومين منها فيبلغ 16.2 مليون طفل؛ إضافة إلى 9.7 مليون صبي وصبية تتراوح أعمارهم بين 15-24 سنة. ويشير التقرير إلى أعداد الأميين في عدة دول عربية: الجزائر نحو 2 مليون، مصر 7.5 مليون، العراق 1.1 مليون، المغرب 2.1 مليون، والسودان 4.2 مليون. أما عدد الأميين في بقية الدول التي جاءت في ذلك التقرير فتقدر بالآلاف وليس الملايين: لبنان 80 ألف، الكويت 66 ألف، الأردن 46 ألف، السعودية 43 ألف، فلسطين 18 ألف. كما يذكر التقرير أن هناك نحو 27.5 مليون عربي ليس لديهم مهارات القراءة.

إن تعلم مهارات القراءة والكتابة هو الوسيلة الوحيدة لمحو الأمية التقليدية، أي أمية القراءة والكتابة. لكن الأمية في هذا العصر لا تنحصر في غير القادرين على القراءة والكتابة فقط، وإنما تشمل ضعيفي المعرفة بالتطورات الثقافية والتكنولوجية والحقائق العلمية والمواقف القيمية السليمة، وهذه أمية أطلقت عليها اسم "الأمية الثقافية". وهذا يعني أن هناك أمية تقليدية تتمحور حول عدم معرفة فنون القراءة والكتابة، وأمية ثقافية تتمحور حول عدم الإلمام بنواحي الحياة الثقافية والعلمية والتكنولوجية والإدارية وغيرها. إن تعلم القراءة والكتابة هو المفتاح الذي يقود إلى التغلب على الأمية التقليدية، لكن الأمية الثقافية لا يمكن التغلب عليها إلا من خلال التعود على القراءة

ومواصلة الاطلاع على المستجد من كتب ثقافية وعلمية ومعرفية متنوعة. وفي حالة عدم التعود على القراءة، وهذا ما يحصل فعلا بالنسبة للأغلبية الساحقة من خريجي المدارس والجامعات العربية، فان بعض الخريجين يعودون إلى حظيرة الأمية التقليدية في غضون سنوات، وتقع غالبية الآخرين في قفص الأمية الثقافية. وهذه تقودهم إلى الجهل بحقائق العصر والابتعاد عن روحه، والفشل في الحصول على أدوات التعايش معه بسلام. وفي الواقع، ليس بالإمكان إصلاح التعليم الابتدائي والثانوي من دون رفع مستوى خريجي الجامعات، لأن الجامعات هي النبع الذي يغذي المدارس بالمعلمين والمربين والمشرفين الاجتماعيين. كما أن الجامعات هي الجهة الأكثر إسهاما في تدريب أساتذة المدارس، وتأهيل المعلمين الذين تسند إليهم مهام تدريس كافة المواد الدراسية في المدارس الابتدائية والثانوية.

الأمية الثقافية لا تسود في أوساط عامة الناس فقط، بل تتفشى أيضاً في صفوف كافة فئات المجتمع العربي. فالأغلبية الساحقة من خريجي الجامعات العربية، ومعظم أساتذة المدارس، والكثير من أساتذة الجامعات والقيادات التقليدية، والعاملين في مجالات السياسة والاقتصاد وحتى الثقافة والإعلام يعانون من الأمية الثقافية. وإذا كانت الأمية التقليدية تحرم المصابين بها من نعمة القراءة والكتابة والتواصل مع الغير من خلال الكلمة المكتوبة، وتضعف فرص حصولهم على وظائف ذات دخل جيد، فإن الأمية الثقافية تشكل عبئاً على أصحابها وعلى المجتمع والوطن، لأنها تضعف قدرة المصابين بها من أفراد وشعوب على تجاوز حواجز الفقر والتخلف والتبعية، وتحقيق ما يصبون إليه من صحوة ونهضة.

تعتبر الأمية في عصرنا هذا وباءاً اجتماعياً تعمل كل دول العالم تقريباً والكثير من المنظمات الدولية على إزالته وتخليص الأميين منه، كما يُعتبر الأميون موارد بشرية تعاني الإهمال، وعبئاً مجتمعياً أحياناً، وذلك بسبب ضعف قدراتهم الإنتاجية وتواضع إمكاناتهم على إعالة أنفسهم وعائلاتهم. وبسبب تواضع مؤهلاتهم العلمية والثقافية بوجه عام، فإن الأميين الثقافيين كثيراً ما يتعرضون للاستغلال والتضليل من قبل التجار والمحتالين والقوى الأيديولوجية المتطرفة في المجتمع. وفي ضوء تزايد حاجة كل المجتمعات للعمال المؤهلين تأهيلا علمياً وفنياً وثقافياً جيداً للعمل في الصناعات الحديثة والخدمات ذات القيمة المضافة العالية، فإن عمليات تأهيل الأميين من العمال أصبحت أكثر صعوبة وتكلفة وإلحاحا من أي وقت مضى، ما يتسبب في إبطاء عملية التطور المجتمعي، ويقود إلى تخلف قطاع كبير من السكان عن ركب المسيرة التنموية.

تعترف كافة الدراسات والتشريعات والمنظمات الدولية بأن التعليم حق إنساني وواجب من واجبات الدولة، وضرورة تنموية في آن واحد. وفي الواقع، ليس بالإمكان بناء اقتصاد حديث لديه القدرة على المنافسة في الأسواق العالمية من دون أن يكون لديه قوة عمل متعلمة ومدربة، تتحلى بمواقف إيجابية من العمل والوقت ولديها ما يكفي

من الحوافز للإسهام بفاعلية في العملية الإنتاجية. إن إدراك هذه الحقائق في البلاد العربية كان حافزاً لانتشار برامج محو الأمية المدعومة من الحكومات العربية والمنظمات الدولية ووصولها إلى الأرياف والقرى وأماكن تواجد الفقراء، وإقامة المراكز المتخصصة بتعليم الكبار، واستخدام وسائل الإعلام لحث الأميين على تعلم القراءة والكتابة. من جهة أخرى، تقوم بعض الجامعات ومنظمات المجتمع المدني بحملات تطوعية لمحو الأمية، وتقديم خدمات مجانية لمن يرغب التعلم والتدريب وإدارة المشاريع الإنتاجية الصغيرة. وفي الواقع، من الصعب رفع إنتاجية العامل وتوعيته بأهمية الوقت، وضمان انتظامه في العمل والتزامه بمواعيده، وتنشيط عمليات الادخار والاستثمار، وزيادة إنتاجية الاقتصاد الوطني إلا بتوفر قوة عمل مؤهلة، ونخبة إدارية معرفية.

يعود الاهتمام بفن القراءة والكتابة إلى كونه أداة الإنسان الرئيسية للحصول على المعرفة، والطريقة الوحيدة التي تمكنه من تعلم المهارات الفنية والإدارية وكيفية استخدام الكثير من منتجات العصر الإلكترونية، مثل الكمبيوتر والإنترنت. وهذا يعني أن التعليم، بشقيه النظري والعملي، هو السبيل الوحيد لتأهيل الأميين وتمكينهم من احتراف مهن ذات عوائد مالية واجتماعية جيدة تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم والعيش حياة كريمة. إن محو الأمية لدى الكبار في السن من شأنه زيادة وعي الآباء والأمهات بأهمية التعليم، وزيادة حرصهم على توفير فرص التعليم لأبنائهم وبناتهم. كما أن من شأن التعليم غير التقليدي أن يُسهم في تحرير المرأة وتقوية مركزها في محيط الأسرة وتعزيز دورها في المجتمع، والإسهام في خفض معدلات التزايد السكاني في الدول التي تعاني من ارتفاع نسبة المواليد. لكن تعلم القراءة والكتابة وحده لا يكفي لمحو الأمية بالنسبة للصغار أو الكبار، ولا يقود بالضرورة إلى خلق إنسان جديد لدية الرغبة في الحصول على معارف جديدة غير تقليدية، ويملك القدرة على أداء مهام تكنولوجية وعلمية إنتاجية، وإتقان مهارات من شأنها إعداده ليكون مواطناً منتجاً وصالحاً، ولديه الوعي الكافي ليعرف حقوقه ويطالب بها، ويفهم واجباته ويقوم بأدائها بأمانة.

وهذا يعني ببساطة أن على المدرسة الابتدائية أن تركز على تعليم التلاميذ فن القراءة والكتابة واتقان اللغة التي يتعلمونها، وعلى المدارس الثانوية والجامعات أن تعلم الطلبة أهمية القراءة، وأن تقوم بتعويدهم على القراءة والمواظبة عليها كهواية يقضي الإنسان جزءا من وقته معها مبحرا في عالم المعرفة والخيال. فالقراءة هي السبيل لحصول الطلبة على المزيد من المعارف، وإثراء حياتهم الثقافية والعلمية والاجتماعية، والترفيه عن أنفسهم، والهروب أحيانا من الأفكار السوداء وظلامها إلى نور العلم وشمسه الدافئة. وفي الواقع، علينا أن نُعلم الطلبة منذ بداية الدراسة في المدارس الابتدائية أن عملية التعلم لا تتوقف أبداً، تبدأ من المهد ولا تنتهي إلا في اللحد.

إن قدرة أي إنسان على تعلم شيء وإتقانه تعتمد على رغبته في التعلم، وعلى توفر الوقت الكافي لديه لمواصلة التدريب واستخدام المهارات المكتبية والمعملية في تطبيقات عملية مفيدة مادياً ومجزية معنوياً. وعلى سبيل المثال، يعرف معظم الناس أن دراسة لغة أجنبية في المدرسة تقود في معظم الأحيان إلى الدراية بها، وفي بعض الأحيان إلى تعلم ما يكفي منها لاستخدامها كأداة بحثية، وأن الدارس لا يصل إلى درجة إتقان اللغة كطريقة في التفكير وفي الكتابة الأدبية الإبداعية إلا بعد جهد طويل وممارسة متواصلة. لكن مهما بلغت درجة إتقان أية لغة فإن إهمالها لفترة طويلة، وذلك لعدم وجود حاجة لاستخدامها أو لعدم وجود وقت للاهتمام بها، يؤدي دوماً إلى تحولها من مهارة إلى ذاكرة متقادمة، بحاجة ماسة لعملية صيانة مضنية إذا ما أريد العودة لاستخدامها من جديد.

في منتصف ستينيات القرن الماضي التحقت بإحدى الجامعات الألمانية في مدينة شتوتجارت وذلك بعد دراسة اللغة الألمانية بشكل مكثف لمدة 4 شهور متتالية في معهد جوته. لكني تركت ألمانيا في العام التالي حيث واصلت دراستي في أحدى الجامعات الأمريكية، ما جعلني انقطع عن ألمانيا وعن اللغة الألمانية لمدة 5 سنوات متواصلة. ولقد كانت تلك الفترة كافية لاختصار قدراتي اللغوية بالنسبة للألمانية إلى حوالي نصف ما كانت علية في السابق. وعلى الرغم من زياراتي المتكررة لألمانيا منذ ذلك الوقت لإلقاء محاضرات سياسية وثقافية واقتصادية في جامعاتها ومراكز الدراسات فيها، وشغفي بتلك البلاد وثقافتها، إلا أن ما تبقى لدي اليوم من تلك اللغة قد يكفي لسائح، لكنه لا يكفي لباحث، أو حتى لقارئ يريد الاطلاع على ما يكتب بتلك اللغة.

إن هذا لا يقتصر على تعلم اللغات الأجنبية فقط، بل يشمل أيضا اللغات الأم التي يتعلمها الطفل بعد الولادة مع حليب أمه، ويتعرف على جمالياتها من أغنيات أمه وجدته تهدهده كي ينام ويحلم أحلاماً سعيدة. ولو استعرضنا أسماء أساتذة الجامعات من العرب الأمريكيين، خاصة أبناء الرعيل الأول الذي يوشك على الاختفاء عن ساحة العلم والحياة، لوجدنا أن عدد من استطاع منهم أن يحافظ على لغته الأصلية ويمارس الكتابة فيها لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة. وهذا يعني أن لغة الأم، شأنها شأن أية لغة أجنبية، يمكن نسيان جزء كبير منها حين يتم إهمالها، وإن من المؤكد أن تتراجع مقدرة أبناءها على استخدامها للتعبير عن الذات وممارسة الكتابة الخلاقة.

لذلك لا يمكن محو الأمية بمجرد تعليم الأميين من الناس أصول القراءة وأحرف الكتابة، لأن عدم استخدام اللغة في القراءة والكتابة بشكل شبه متواصل من شأنه أن يؤدي إلى عودة الأمية من جديد، وإضاعة الجهد والمال والوقت الذي بذل في عملية التعليم أصلاً. إن اعتقاد البعض بأن بالإمكان معرفة القراءة والكتابة دون ممارستها، والحصول على تعليم جامعي دون مواصلة عملية التعلم، وشعور غالبية خريجي الجامعات العربية بانتهاء رحلة الحياة العلمية مع الكتاب والقلم بمجرد الحصول على شهادة جامعية، هي مفاهيم خاطئة وخطرة على مستقبل المجتمع. إن

من شأن القبول بتلك المفاهيم العودة بالشخص "المتعلم" إلى حظيرة الأمية، لكنها أمية من نوع جديد أكثر خطورة وأعمق أثراً على المجتمع من أمية القراءة والكتابة، إنها "أمية ثقافية." وتعني الأمية الثقافية نقص المعلومات فيما يتعلق بالعصر وحقائقه الصحية والعلمية والفكرية، وتراجع القدرة على مواصلة التعلم، خاصة بالنسبة للمواضيع التكنولوجية والعلمية والإدارية، وغياب الرغبة في تخصيص الوقت الكافي لرفع مستوى معارف الشخص المعني.

إن تراجع نسب الأمية التقليدية في بلاد العرب باستمرار، يقابله تزايد متواصل في نسب الأمية الثقافية. إذ إن فشل البيوت والمدارس والجامعات في تشجيع الأطفال والشباب على القراءة والكتابة، وتعويدهم على ممارستها كهواية ومصدر متعه، يقود ليس فقط إلى إضعاف مهارات القراءة والكتابة لدى القراء بوجه عام، بل وأيضاً إلى عزلهم عن المستجدات الفكرية، وإضعاف قدراتهم على التفكير الواعي. وهذا من شأنه أن يحد من قدرات الأميين على متابعة الأحداث المحلية والدولية، وتنمية مهاراتهم ومعارفهم المختلفة، ويحولهم إلى ضحايا لإعلام رسمي وتجاري يتوخى التضليل والإثارة والعائد المادي، وليس البحث عن الحقيقة. وهذا يقود بدوره إلى تكريس الأفكار القديمة والنظريات التآمرية في المجتمع، ويفتح المجال لانتشار الإشاعات والخرافات وحكم الماضي التي تجاوزها الزمن، ويمهد الطريق لتغلغل آراء العجزة والجهلة والمتطرفين بين الناس وسيطرتها على عقول المصابين بالأمية الثقافية وغير الثقافية. وهذه أمور تفتح المجال لمن يحسن التحدث بلغة الجماهير أن يقوم بتوجيه سلوكياتها وصياغة مواقفها من الذات والآخر، العلم والجهل، والماضي والمستقبل بشكل يكرس الإحباط في النفوس، والاتكالية في المجتمع، والتخلف على الأرض.

بناء على ما توصلت إليه من معلومات بالنسبة لعدد الكتب التي تصدر سنويا في الدول العربية، ومعدل مبيعات الكتاب الواحد، يمكن القول أن العربي يقرأ في المعدل نحو 15 صفحة سنويا، بينما يقرأ الفرد في الغرب نحو 8 كتب في المعدل، ما يعني أن الإنسان في الغرب يقرأ حوالي 80 مرة ما يقرأه العربي، وذلك على افتراض أن معدل عدد صفحات الكتاب 240 صفحة. أما فيما يتعلق بنشر الكتب وتوزيعها، فإن بعض التقارير تشير إلى أن مجموع ما يصدر عن دور النشر العربية يبلغ حوالي 25000 كتاب في السنة، علماً بأن عدد سكان الوطن العربي بلغ في عام 2022 حوالي 430 مليون شخص. ومع تواضع عدد الكتب التي تنشر في العالم العربي، تشير المعلومات إلى أن حوالي 10% منها كتب مترجمة من لغات أجنبية، وحوالي ربعها كتب خرافية كتفسير الأحلام وعذاب القبر، وكتب تراثية يعاد نشرها لأكثر من مرة. أما توزيع الكتاب الواحد فتشير التقارير إلى أنه في حدود 1000 نسخة فقط. في المقابل، نلاحظ أن هولندة التي يبلغ عدد سكانها حوالي 15 مليون نسمة تنشر ما يزيد على 12000 كتاب في العام، وتنشر ألمانيا التي يبلغ عدد سكانها حوالي 80 مليوناً حوالي 70000 كتاب في السنة.

وتشير الإحصاءات المتعلقة بطباعة وتوزيع الكتب والمجلات والجرائد في الوطن العربي إلى أن العرب من أقل الشعوب إقبالا على شراء الكتب وقراءة الجرائد والمجلات، وأن الجامعات ودور الكتب تعتبر من أفقر الجامعات والمكتبات في العالم. وخلال البحث عن ناشر لأحد كتبي قبل سنوات في بيروت، اكتشفت أن معظم دور النشر، العريقة وغير العريقة، قد أصبحت من حيث عدد الموظفين والكتب المنشورة ومدى تنوعها أصغر بكثير مما كانت عليه في سبعينيات القرن الماضي، وأن غالبيتها تفتقد الجرأة على نشر كتب غير تقليدية، وأنها تركز على نوعية محدودة من الكتب والكُتاب. ويعود سبب ذلك إلى خوفها من نشر كتاب لا يساير الموجة الفكرية والعقائدية الآخذة في الهيمنة على الشارع العربي، وترددها في التعامل مع كاتب جريء قد ينتقد السلطة المتسلطة على المجتمع. وبوجه عام، تسعى دور النشر العربية إلى الربح المادي المجرد من رسالته الإنسانية، ما يجعلها تبتعد عن المخاطرة، وتركز على كتب مؤلفين يحملون أسماء معروفة وأفكار تقليدية، أو نجوم التلفزيون الذين يتخذون النفاق والتضليل مهنة، ويعملون بوعي على مقاومة الأفكار العلمية والتحررية والنظريات الفلسفية غير الغيبية.

إن مقارنة نسبة القادرين على القراءة في العالم العربي مع نظيراتها في معظم دول العالم تكشف أن العرب ربما أصبحوا أقل شعوب الأرض قراءة. ويعود السبب في ذلك لأربعة عوامل رئيسية: أولاً، وصول الراديو والتلفزيون إلى العالم العربي في وقت حرج بالنسبة لتاريخ العرب الثقافي؛ إذ فيما وصل الراديو في أربعينيات القرن العشرين، وصل التلفزيون في أوائل الستينيات حين كانت نسبة الأمية تتجاوز 70% في المعدل. لذلك قام الراديو والتلفزيون بالاستيلاء على دور القراءة في حياة الناس، خاصة وأن الكتب كانت قليلة والقدرة على شرائها ضعيفة. ثانياً، غياب الوعي لدى المسئولين العرب المعنيين بشؤون التربية والتعليم بانهم يواجهون مشكلة تحتاج لمعالجة سريعة، إذ مع أنه كان من الممكن التغلب على تلك المشكلة بتعويد طلبة المدارس والجامعات على القراءة، إلا أن الحكومات لم تعي أهمية هذه المشكلة، بل لم تشعر بوجودها أصلاً. وثالثاً، حين أصبحت مشكلة القراءة واضحة للعيان، كان الإعلام، وعلى الأخص الراديو والتلفزيون، قد أصبح أهم أدوات تزييف وعي الجماهير والتحكم في اتجاهات الرأي العام، ما دفع الحكومات العربية إلى الاعتماد على الراديو والتلفزيون لتزييف الحقائق وتضليل الجماهير، وحرمان الكتاب الجيد من الوصول إلى الأسواق، وحرمان الرأي الحر من الوصول إلى الشعوب عبر وسائل الإعلام. ورابعاً، تدهور العملية التعليمية والتربوية بعد التوجه الجماهيري نحو ثقافة الاستهلاك بعيداً عن ثقافة الإنتاج، وظهور التعليم التجاري الذي يسعى إلى الربح وليس إلى رفع مستوى التعليم، واتجاهه نحو إهمال العملية التربوية بالكامل تقريبا. لقد أصبح بإمكان طالب الدراسات العليا اليوم أن يذهب إلى جامعة عربية ويحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه دون أن يقرأ كتاباً واحداً، وكأن الكتب لا علاقة لها بالمعرفة والعلم.

وهذا يعني باختصار، أن تربية جيل عربي جديد يعي معنى الثقافة السليمة، ويسعى للبحث عن المعرفة، ويعمل على استيعابها يوجب أولاً تحرير قنوات الإعلام المسموعة والمرئية من سيطرة نظم الحكم وهيمنة المال، ويتطلب ثانياً فتح المجال أمام المفكرين والمثقفين غير التقليديين للوصول إلى الجماهير عبر القنوات الإعلامية، ويحتم ثالثاً قيام المؤسسات التعليمية بتشجيع النشء الجديد على قراءة الكتب والمجلات والجرائد ورفع مستواها. ودون ذلك، سيكون من الصعب الحفاظ على الهوية الوطنية، ومن الأصعب خلق وعي سليم لدى الجماهير العربية، ومن شبه المستحيل تطوير الثقافة العربية إلى ثقافة عصرية. إن العرب بحاجة ماسة لثقافة جديدة باستطاعتها بلورة مفهوم جديد وتقدمي للهوية الوطنية والهوية القومية، وقادرة في الوقت ذاته على مسايرة العصر والاستفادة من إنجازاته العلمية والتكنولوجية والاقتصادية، وقيادة عملية النهضة والتقدم.

إن من الحقائق المؤسفة أن العرب الذين يعانون أمية ثقافية لا يقومون بإهمال القراءة فقط، بل يحاولون أيضاً إبعاد القراء عن الانشغال بها وإشغالهم بدلا من ذلك بأمور تافهة تعود عليهم بضرر مادي وصحي، فيما تقوم بهدر وقتهم الذي يعتبر أغلى ما يملك الإنسان في هذا العصر. ومن أمثلة ذلك، الاتجاه نحو الانشغال بلعب طاولة الزهر، وتدخين السيجارة والأرجيلة، ومشاهدة برامج تلفزيونية تافهة وعقيمة، والمشاركة عبر التلفزيون في مسابقات تسلب أموالهم، واستخدام تلفونات نقالة بهدف التواصل مع الجنس الآخر، والقيام أحياناً بتعميم نكات سفيهة وإشاعات مغرضة. وفي الواقع، أصبحت القراءة في الوطن العربي من الأمور المستهجنة، ما جعل القارئ المواظب والكاتب الجاد مدعاة للسخرية والاستهزاء أحياناً، إذ يصفه أميو الثقافة بأنه إنسان، "يضيع وقته في كلام فارغ، ويكتب كتبا ومقالات لا يقرأها أحد".

لقد وصلت أمور القراءة في بلاد العرب درجة يمكن معها القول: "إن قراءة الفنجان أفضل من قراءة ألف عنوان"، وذلك لأن في الأولى متعة الكذب والتضليل والتشهير، وفي الثانية مرارة الحقيقة ومشقة التحليل والتفكير. وحيث أنني واحد من القلة العربية القارئة، ولأنني أخصص ما يزد عن 85% من وقتي للقراءة والكتابة، فقد تعرضت مراراً لانتقادات من أصدقاء وأقرباء جعلتني أشعر بالحزن والأسى، وأقف على حافة اليأس من احتمال صحوة هذه الأمة في الوقت المناسب لتتدارك أمرها قبل فوات الأوان. ويبدو اليوم أن الأوان على وشك أن يتجاوزنا.

الأمية الثقافية التي تصيب الأغلبية الساحقة من خريجي الجامعات العربية، خاصة أولئك الذين تخرجوا منذ ثمانينيات القرن العشرين، هي أخطر بكثير من الأمية الناجمة عن عدم معرفة القراءة والكتابة. إن الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة يدرك تماماً أنه ليس باستطاعته التنافس مع الداخلين إلى سوق العمل من المتعلمين، سواء في مجال التجارة أو الخدمة الحكومية أو المهن ذات الاحتياجات المعرفية أو التكنولوجية، وأنه ليس بإمكانه الخوض في

قضايا فكرية ومجتمعية معقدة. لكن المُصاب بلعنة الأمية الثقافية من خريجي الجامعات فيفتقد الوعي بما يعانيه من مرض، ويفتقد غالباً الرغبة في تحديث معلوماته ومهاراته، فيما يعتقد ف أن من حقه الحصول على وظيفة ذات مكانة اجتماعية يمارس من خلالها سلطة الترفع عن عامة الناس وإهدار وقتهم وإهانتهم أحياناً. وبينما يتصف الأميون التقليديون عموماً بالتواضع، وذلك لأنهم يعرفون حدود علمهم ويعترفون بها، يتصف أميو الثقافة عموماً بالعنجهية والدجل لإخفاء ما يعانوه من جهل علمي وشذوذ أخلاقي.

إن محو الأمية يتطلب أكثر من تعليم الأميين وتلاميذ المدارس مهارات القراءة والكتابة بكثير، أنه يتطلب تعليمهم طرق القراءة الحديثة وفنون الكتابة الإبداعية، وأهمية القراءة والكتابة كأداة تثقيفية ومعرفيه وإنتاجية. وفوق ذلك كله، يتطلب تعليمهم القراءة والكتابة كهواية من شأنها مساعدة أصاحبها على التعبير الصادق عن الذات، والترويح عن النفس، والتمتع بأوقات الفراغ، وتحويل الوقت الضائع إلى عمل منتج. اللغة ليست أداة للتعبير فقط، بل هي أيضاً طريقة في التفكير، والقراءة ليست أداة للاطلاع على معلومات جديدة فقط، بل هي أيضاً أداة لاكتشاف الهوايات والمواهب واستغلال الوقت المتاح. والقراءة والكتابة معا هما وسائل حيوية لتحرير الفرد والمجتمع من كبت التقاليد وعقم القيم التراثية الموغلة في القدم، وتمكين العقل من تجاوز المفاهيم الخرافية واكتساب الجرأة على التفكير الخلاق ونقد الذات والعادات والشعارات الجوفاء، وإدراك أهمية الوقت واستحقاقاته، والاستفادة من علوم وتجارب الآخرين. وهذا يعني أن محو الأمية يحتاج، أولاً وقبل كل شيء، غرس ثقافة القراءة والكتابة في البيوت والمدارس والجامعات كي تصبح جزءاً من نظم التربية والتعليم، وتقليداً تعتز به الشعوب وتعمل على تعميق جذوره. وهذا لن يتأتى إلا بالاعتراف، رسمياً وشعبياً، أن الثقافة العربية بحاجة لتطوير، وأن مسؤولية تطويرها تقع على عاتق الدولة والمثقفين غير التقليديين والإعلاميين، وأن هناك حاجة ملحة لتغيير الأولويات الوطنية بحيث تأخذ القراءة والكتابة المكانة التي تحتلها الأرجيلة والسيجارة، ويصبح الإنفاق على شراء الكتب أهم من البذخ على حفلات الغداء والأفراح والمآتم والتدخين والتلفون الخلوي.

أخبرني صديق حميم تبوأ منصب الرئيس لأكثر من جامعة عربية على مدى عقدين من الزمن، أنه بينما كان يتجول في إحدى المكتبات في أمريكا بصحبة ابنته التي كانت تدرس هناك، رأت الشابة أحد كتبي معروضة في مكان بارز، وهذا جعلها تشعر بالنشوة والفرح. ولذا طلبت من والدها شراء الكتاب، إلا أن الوالد اعتذر عن شرائه حين أدرك أن ثمن الكتاب 30 دولارا. لم أعلق على ما قاله الصديق لأنني كنت حينئذ أتناول الغداء في بيته، ولإيماني بأن من حقه أن ينفق ماله بالطريقة التي يراها مناسبة. إلا أن تلك القصة جاءت لتعيد تأكيد قناعاتي بمدى ما تعيشه الثقافة العربية من تردي، وهي قناعات ولدت بعد هزيمة العرب عام 1967 أمام القوات الإسرائيلية، فالصديق المعني

دعاني عدة مرات لتناول الطعام معه ومع عائلته في بيته وفي مطاعم "راقية"، وأنه أنفق على دعوات أقامها لي وعلى شرفي عشرات المرات ما كان من الممكن أن ينفقه على أي كتاب من كتبي. المشكلة إذن ليست في ثمن الكتاب، ولا في قرار الشراء من عدمه، فالكرم من طبع الصديق يمارسه دون تكلف على الإطلاق، بل المشكلة في الثقافة العربية التي تعطي أهمية للمناسبات الاجتماعية أكثر بكثير من اهتمامها بالكتب وما يتفرع عنها من قراءة وثقافة وفكر.

إن من الحقائق المهمة المتعلقة بقضايا التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية، أن توفر الموارد البشرية المؤهلة تأهيلاً علمياً وفنياً أصبح من المسلمات التي لا يمكن تحقيق التنمية والنهضة من دونها. ولنا فيما حققته الصين والهند وكوريا الجنوبية وسنغافورة وتايوان وماليزيا ومن قبلها اليابان خير مثال على ذلك. لكن رأس المال البشري، كي يكون قادراً على الفعل ومبادراً في تفعيل عملية التنمية وتحمل أعبائها، لا بد وأن يمتلك مواقف إيجابية من العمل والوقت بشكل عام، وأن يتحلى بالقيم التي تحبذ الإنتاج وتعمل على رفع الإنتاجية، وتحترم العمل اليدوي وتلتزم بالولاء للوطن وللمؤسسة التي يعمل العاملون فيها. وهذا لن يتأتى إلا بتطوير نظم التربية والتعليم، وتنشئة الأجيال القادمة على حب المعرفة والإيمان بأن العملية التعليمية تبدأ من المهد ولا تنتهي إلا في اللحد.

إن العالم العربي لا يفتقر إلى رأس المال البشري المؤهل لبدء عملية تنموية نهضوية كما هو عليه الحال في الصين والهند، بل على العكس من ذلك. لقد قامت الحكومات العربية المتعاقبة، ودون استثناء، بالاهتمام ببناء رأس مال بشري عربي كبير ومؤهل نسبياً من النواحي العلمية والفنية، ولكن ليس من النواحي الثقافية. كما قامت أيضا بالعمل على خفض نسبة الأمية، وإقامة عشرات الآلاف من المدارس ومئات الكليات المهنية والجامعات. لكن تلك الحكومات أهملت، وبشكل يكاد يكون كاملاً، العناية بنوعية التعليم وبالعملية التربوية التي تستهدف مكافحة العادات السيئة والمواقف السلبية، وغرس مواقف وقيم وعادات إيجابية في مكانها. كما أهملت متطلبات توفير بيئة اجتماعية وسياسية وأطر ثقافية تشجع العمل والإنتاج، وتحقق تكافؤ الفرص، وتقوم بمكافأة المنتج ومعاقبة المتخاذل، وتأسيس بنية مؤسسية علمية وبحثية تحتية تجعل بالإمكان تنمية رأس مال بشري مؤهل، ورفع كفاءته باستمرار.

وعلى سبيل المثال، تشير الإحصاءات والمعلومات المتوفرة إلى أن العرب متساوون تقريباً مع الصين والهند في مجال التعليم العام والجامعي، وأنهم متفوقون على البلدين بالنسبة لعدد الطلبة الملتحقين بالجامعات في الداخل والخارج، لكن نسبة كبيرة من أفضل العقول العربية هاجرت أو تم تهجيرها إلى دول الغرب الصناعية. وبينما شهدت الصين حدوث هجرة معاكسة بالنسبة لأبنائها من أمريكا وأوروبا، خاصة من ذوي المؤهلات العلمية التخصصية في الهندسة والطب والكمبيوتر والاتصالات والمعلومات، نشاهد تسارع هجرة الكفاءات العربية من ذوي المؤهلات نفسها

إلى دول الغرب الصناعية. وخلافاً للمتعارف عليه عالمياً، تزيد نسبة البطالة بين الجامعيين العرب عن نسبة البطالة بين الأميين العرب، وذلك لأسباب كثيرة يعود أهمها للتنشئة التربوية السيئة، والخلفية الثقافية التقليدية، والبيئة الاجتماعية والسياسية التي تعمل بوعي ومن دون وعي على كبت المبادرات الفردية وقتل المواهب الخلاقة، وغياب المواقف الإيجابية تجاه الوقت والعمل والحياة. وهذه معوقات ليس بالإمكان التغلب عليها إلا بتحسين نوعية التعليم، ومحو الأمية الثقافية، وتبني سياسات تعليمية جديدة تعترف بأن العملية التعليمية هي عملية تربوية في الأساس.

إن انتشار الأمية التقليدية والثقافية في المجتمعات العربية يحول دون تماسك تلك المجتمعات، ويقوض وحدة الثقافة واللغة، ويضعف إمكانات تطوير أخلاقيات ومواقف تبني مجتمعا منتجا وجيلا ملتزما بوطنه. ومع اتساع فجوة الدخل والموقع الاجتماعي بين المتعلمين والأميين، تتسع الفجوة الثقافية التي تفصلهم عن بعضهم البعض. وهذا من شأنه تشويه الثقافة الوطنية والتسبب في تفتيتها إلى ثقافات فرعية غير متجانسة وربما متناقضة، ويقود بالحتمية إلى زيادة حدة ما يعانيه المجتمع العربي من أزمة ثقافية وأزمة هوية وصراع. وبسبب كثرة أعداد أميي القراءة والكتابة، وغلبة أميي الثقافة من حاملة الشهادات الجامعية على غيرهم من جامعيين، أصبح من الطبيعي أن يفشل المثقفون العرب في قيادة مجتمعاتهم نحو التحرر والنهضة. ولما كان المثقفون المؤهلون علمياُ وتربوياً يميلون بحكم ثقافاتهم إلى الالتزام بقضايا الفقراء والجهلة والمهمشين، فإن غيابهم عن قيادة المجتمعات العربية كان سبباً في تعميق أزمات المجتمع العربي، وانتشار آفات الجهل والكبت والكذب والاستهتار فيه على نطاق واسع. لذلك نلاحظ أن أغلبية المثقفين غير التقليديين يعيشون اليوم في عزلة شبه تامة عن عامة الناس، البعض يقبع في سجون السلطة، والبعض الآخر يعيش في منافي المهجر، فيما يمتهن غيرهم مهنة التطبيل والتزمير، يُسَبحون بحمد الدولة والحاكم، يستجدون المال من الأثرياء، حتى وإن استوجب ذلك امتداح الجهل والسير في ركابه. مع ذلك، توجد هناك قلة مغلوبة على أمرها، تجلس في بيوت لا تزورها الشمس إلا قليلاً خلف مكاتب تئن من ثقل الكتب والأوراق المبعثرة فوقها، يقرأون ويفكرون ويكتبون ويحلمون بمستقبل عربي مشرق، مع إدراكهم الكامل أن المستقبل الذي يحلومون به لن يكون لهم ولن يحدث في زمنهم.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 61 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية

والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، و 3 روايات، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

يرأس الدكتور ربيع مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حاز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، إضافة لعدة جوائز أخرى من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com